Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 20:2 (1985

# القاديانية فى رأى محمد اقبال

العَلامة المغفور له محمد اقبال
تعريب :د . ميرولى خان المسعودى و محمد الغزالى

( ان لشاعـر الشـرق محمد اقبال لدورا عظيما فى الكشف عن حقيقة الطائفة القاديانية ، فان المغفورله هـو أول من كشف القناع عن وجه هذه الجماعة الضالة التى وضع اساسها الاستعمـار الانكليـزى والتـى كانت تهدف الـى انشاء طائفة موالية للاستعمار الانكليزى ، وكتـب العـلامة محمـد اقبـال عـدة مقـالات عن طائفة القاديـانية ومعتقـداتها و أهـدافها الخبيثة فى عام ١٩٣٦م . ننشـر منها مقالتين هامتين نقلهما الى لغـة الضاد صديقنا الفاضل الدكتور ميرولى خان المسعودى والأستاذ محمد الغزالى ، وقـد سبق أن طبعت لهما بعض المقالات فـى مجلتكم المتواضعة . ونشكر الاخوين الكريمين على ما تفضلا به من القيام بهذه الترجمة ـ التحرير )

## ـ ١ ـ

## القاديانية والمسلمون

تعريب : د . ميرولى خان

(كان فى خاطرى منذ زمـن طـويل أن أقـوم بترجمة خطب العلامة

محمد اقبال وبياناته المختلفة من اللغة الانكليزية الى اللغة العربية لتعميم الفائدة ، واطلاع العالم العربى على جهود هذا المفكر الكبير فى الدفاع عن حقوق مسلمى الهند ، وكفاحه المرير عن طريق الأشعار والخطب والبيانات والخطابات فى الحصول على وطن مستقل للمسلمين فى شبه القارة الهندية ، وموقفه الصارم ازاء الطائفة القاديانية مطالبا الحكومة البريطانية بالاعلان عنها بأن هذه الطائفة منفصلة عن المسلمين .

وبينما كنت أنازع نفسى حول المشروع المذكور فقد صدف أنى قابلت صديقى المخلص الدكتور شير محمد زمان المحقق الكبير ومدير عام مجمع البحوث الاسلامية بالجامعة الاسلامية ، وفاتحته أثناء الحديث بالمشروع فاقترح على أن أقدم ما أترجم من خطب وبيانات محمد اقبال فى شكل الأقساط الى مجلة الدراسات الاسلامية للطبع .

وها أنا ذا أقدم القسط الأول المعنون ,,بالقاديانية ـ والمسلمين،، وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد وهو نعم المولى ونعم النصير .

الدكتور ميرولى خان المسعودى )

ان القضية التى أثارت ضجة من الجدال بين القاديانيين والمسلمين لها أهمية قصوى . ذلك أن مسلمى الهند بدؤا يدركون خطورة هذه المسألة ، وقد أردت أن أوجه خطابا مفتوحا الى الشعب الانكليزى مفسرا لهم مضمرات هذه المسألة الاجتماعية والسياسية ، ولكن سؤ صحتى ، مع الأسف الشديد ، يمنعنى من القيام بهذا العمل ، وعلى كل حال ، فانه يسعدنى جدا أقول بضعة كلمات حول موضوع يمس ، حسب اعتقادى ، الحياة الجماعية

لمسلمي الهنـد . ومهما يكن الأمـر فانه يجب الاشارة هنا الـى أنى لا أريد الخوض فـى الجـدال الدينى كمـا لا أقصـد أن أقـوم بتجـزئة نفسية لعقلية مؤسس حـركة القاديانية ، لأن الأمـر الأول لايشفـع الذين أقصـدهم بهذا البيان ، بينما لم يحن بعـد وقت اشارة المسألة الأخيرة فى الهند . وكل ما أريد هـو أن أقوم بشـرح هـذه المسألة والمقارنة الدينيـة كطالب للتاريخ العـام .

ان الهنـد بلـد يعيش فيـه العـديـد مـن الطـوائف الـدينية ، والاسـلام ملـة دينيـة أيضـا ولكنـه بمعنى اعمـق مـن تلك الطوائف الدينية التـى تشكل كيانهـا علـى الفكـرة العنصـرية . بينما يتبـرى الاسـلام مـن الفكـرة العنصـوية كليا ، ويؤسس كيانه علـى العقيدة الدينية وحدها و لما كان الاسـلام يؤسس كيانه على العقيدة الدينية التى قوامها روح ، والتى صلاتها أقوى بكثيـر من صلات القـرابة الدموية فكانت الجماعـة المسلمـة بطبيعة الحال حساسة أكثر تجاه القوات التى تعتبـرهـا خطـرا علـى سلامتها لذلک فأية طائفة دينية تنسب نفسها تاريخيا الـى الاسـلام وتحسب أنها تنبعث من صميم الاسـلام ، والتى تـدعى لنفسها بنبوة جـديدة كمبـدأ لها ، وتحكم عَلَناً بكفر جميع المسلمين الـذين لايعتـرفون بصـدق وحيها المزعـوم يجب ان يعتبرها كل مسلم خطرا جسيما علـى الاتحـاد الاسـلامى . وهـذا أمـر لازم ، لأن سـلامة الملـة الاسلامية محفوظة فـى الاعتقاد بختم النبـوة فقط .

وربما كانت فكـرة ختم النبوة أصلية فـى تاريخ الانسان الثقافى ، ويفهـم أهميتهـا الثابتـة فُقط الـذين يَقومون بدراسـة ثقافة مجـوسيـة ماقبل الاسـلام فى آسيا الغـربية والوسطى دراسة وافيـة ، لأن مفهـوم

الثقافة المجوسية طبق البحث الحديث ، يشتمل على الثقافات التي لها علاقة : بالزردشتية واليهودية ، واليهودية المسيحية ، والديانة الكلدانية والسبائية ، وكانت فكرة استمرار النبوة المتجددة معتقدا راسخا لهذه الطوائف الدينية ، ومن ثم عاشت هذه الطوائف في حالة انتظار مستمر للنبي ، ومن الجائز ان الرجل المجوسي قد تمتع روحياً ونفسيا بهذه الحالة من الانتظار ، غير أن الرجل الحديث المتحرر روحيا أكثر من الرجل المجوسي لم يتمتع بها . وكانت نتيجة هذا الاتجاه المجوسي تفكك الطوائف القديمة وظهور الطوائف الجديدة بصفة مستمرة يقوم بتشكيلها المغامرون في الدين من مختلف الأشكال في العالم الاسلامي الحديث ، وحاول الطماعون والجهلاء من المسلمين بوقاحة صارحة في أنحاء العالم الحديث ، منتهزين فرصة الصحافة الحديثة ومستعينين بها ، أن يقذفوا مفهوم مجوسية ماقبل الاسلام في وجه أبناء القرن العشرين . ومن الواضح جدا ان الاسلام الذى يدعى بتلحيم جميع طوائف العالم المختلفة الى طائفة واحدة ، لايمكن ان يتصالح ويساير نفسه مع حركة معادية تهدد اتحاده القائم ، وتحمل اليه بوادر الشقة الكبرى في المجتمع البشرى .

ويبدو لى من الشكلين الذين انتحلهما احياء مجوسية ماقبل الاسلام من الجديد ، الفرقة البهائية أكثر أمانة من الجماعة القاديانية ، ذلك أن الأولى تغادر الاسلام علنا ، بينما تحتفظ الأخيرة ظاهرا ببعض معالم الاسلام الهامة للغاية ، مع عدائها الكامل باطنا للروح الاسلامي ومبادئه الغراء ، ذلك أن اعتقاد هذه الجماعة بالله حسود عنده ذخائر غير نافذة من الهزات الأرضية والطاعونات لأعدائه ،

وتصورها للنبى ككاهن ، واعتقادها بدوام روح المسيح . كل هذه أفكار يهودية تماما ، حتى أنه يظن أن هذه الحركة عودة الى اليهودية المبكرة . على أن فكرة دوام روح المسيح ترجع الى التصوف اليهودى أكثر من رجوعها الى اليهودية ذاتها ، ويخبرنا الاستاذ ,,بوبر» الذى قام باعطاء فكرة موجزة عن هذه الحركة ، وقد بادر الى دراستها قبله ,, بوليش ميسحا بالشيم » قائلا : ,, كان المعتقد ان روح المسيح هبط الى الأرض عن طريق الأنبياء بل عن طريق سلسلة طويلة من الرجال القدسين حتى تمتد حاليا الى الصديقين » . وقد ابتدعت الحركات المضللة ، فى ايران المسلمة تحت تأثير أفكار مجوسية ماقبل الاسلام ، ألفاظا مثل ,, بروز» و ,,حلول» و ,, ظل » لتغطية فكرة التجسد المتكرر المتجدد . وكان ابتكار تلك التفسيرات الجديدة للفكرة المجوسية لازما حتى تكون أقل هزة لشعور المسلم ، على أن عبارة ,, المسيح الموعود » ليست من انتاج شعور المسلم الدينى بل هو تعبير منغول ، يوجد أصله فى مفهوم مجوسية ماقبل الاسلام .

ذلك أننا لانجد فكرة المسيح الموعود لافى الدين الاسلامى المبكر ولا فى التاريخ الأدبى ، ولقد قام باكتشاف هذه الحقيقة الهامة الاستاذ . ,, ونسنكس » فى مؤلفه : ,, فهرس أحاديث النبى المقدس » المحتوى على ما لا يقل عن أحد عشر مجموعة من الأحاديث وثلاث من الوثائق التاريخية الاسلامية المبكرة. ومما يدعو الانسان الى التفكير هو ان يعرف جيدا أن المسلمين الأوائل لم يلجأوا الى استعمال هذا التعبير قطعا . ذلك أن هذا التعبير لم يعجبهم بالمرة ربما لأنهم كانوا يعتقدون أنه يتضمن مفهوما مزيّفا

لسير التاريخ ، اذ أن العقلية المجوسية يحسب الوقت كحركة دائرية ، في حين أن عظمة التفسير الصحيح لسير التاريخ بأنها حركة ابتكارية أبدية ترجع الى المفكر والمؤرخ الكبير المسلم ابن خلدون .

لذلك فان الاحساس الشديد الذى يتمثل فى معارضة مسلمى الهند لحركة القاديانية لايخفى البتة على طالب علم الاجتماع الحديث، لأن المسلم العادى البسيط ، الذى وصفه بالأمس أحد الكتاب فى ,, الجريدة المدينة العسكرية ,, بأنه مَركب رجل الدين ، ملهم فى معارضة لهذه الحركة ، حسب اعتقادى ، بغريزة الصيانة النفسية أكثر من تمسكه بمفهوم فكرة ختم النبوة . غير ان المسلم المستنير كما يسمونه قلما حاول أن يعرف الأهميةِ الثقافية الصحيحة لفكرة ختم النبوة فى الاسلام ، لأن تأثير الثقافة الغربية البطيئى اللاشعورى قد حرمه أكثر حتى أصبح عاريا من غريزة الوقاية النفسية . لذلك نجد بعض هؤلاء الذين يدعون بالمستنيرين ، يتورطون ويعظون المسلمين بالتحمل والتسامح، لأن شخصا أوروبيا ولد وترعرع فى احضان ثقافة مختلفة تماما، لايملك الفراسة بل ربما لاتوجد عنده البصيرة التى تمكن الانسان من فهم قضية لها أهمية خاصة بكيان طائفة لها منظور ثقافى مختلف كليا .

ان الناظر الى ظروف الهند يجد أنها شاذة للغاية ، لأن الهند بلد للطوائف الدينية من جهة حيث يتوقف مستقبل كل طائفة على تضامنها ، ومن جهة أخرى يحكمها شعب اوروبى لاحيلة له سوى ان يتبنى لنفسه سياسة عدم التدخل فى الدين . وفيما يتعلق بالاسلام فلا يكون القول مبالغ فيه بأن تضامن الطائفة المسلمة فى الهند تحت حكم الانكليز هو أقل أمنا من اتحاد الطائفة اليهودية

الكائنة أيام يسوع المسيح تحت حكم الرومان .

وذلك أنه يستطيع أى مجاز ف دينى فى الهند أن يدعى لنفسه أى شئ وان ينحت جماعة جديدة دينية لاستغلال فائدته الذاتية . ولا تهتم دولتنا هذه المتحررة قدر تبنة بتعرض وحدة جماعة كائنة للتفرقة ، مادام يكون هذا المجاذف مخلصا للدولة ومادام يقوم أتباعه بدفع الضرائب الواجبة عليهم باستمرار الى الدولة ، وقد لاحظ هذه السياسة بدقة تامة شاعرنا الكبير أكبر حيث أنشد بأسلوبه الهزلى المألوف قائلا :

أيها الصديق أدع لعظمة التاج البريطانى
ثم قل ,, أنا الحق ،، ولن تصلب

وأنا أنظر بتقدير بالغ الى مطالبة رجال الدين من الهنادك بالحماية فى الدستور الجديد ضد مصلحى الدين ، والمفروض أنه كان اللازم أن تكون هذا المطالبة مقدمة من قبل المسلمين ، لأنهم لايؤمنون بالفكرة العنصرية فى كيانهم الاجتماعى . ويجب ان تنظر الحكومة جادة الى الوضع الراهن فى الهند ، وان تحاول بقدر الامكان ان تفهم عقلية المسلم المتوسط تجاه مسألة القاديانية التى يعتبرها كل مسلم فى غاية الأهمية وخطرا كبيرا لسلامة جماعته وعلى كل ، اذا كان اتحاد جماعة مهددا بالتفرقة ، فالطريق المفتوح أمام هذه الجماعة هو أن تقوم بالدفاع عن كيانهم ضد قوات الانفكاك .

اذا فماهى طرق الدفاع عن النفس ؟ ان وجود المكتوبات العديدة المتنازع فيها والادعاءات المفندة ، لرجل تعتبره الجماعة الاصيلة كمغامر دينى لكفيلة بأنه مغامر دينى . فهل يطيب بعد

ذلك الوعظ ، للجماعة الأصيلة التى تهدد سلامتها ، بأن تتحمل وتسمح للجماعة المتمردة بالاستمرار فى دعايتها المعادية ، دون أن تجد أى عقاب ، حتى ولو كانت دعايتها مهينة للغاية .

واذا كانت الجماعة المتمردة ، فى اعتقاد الجماعة الأصيلة ، تقوم بخدمة خاصة للحكومة البريطانية ، فالحكومة على حرية مطلقة ان تجازى هذه الجماعة بأحسن ماتقدر ، ولن تحسدها على تلك الجائزة الجماعة الأخرى ألبتة ، ولكنه من الظلم ان يتوقع من طائفة خاصة ان تجهل بهدوء القوات التى تعمل جادة فى الاساءة الى حياتها الجماعية وذلك أن حساسية الحياة الجماعية تجاه خطر الانفطاك لاتقل عن حساسية الحياة الفردية وأجد هنا من اللازم الاشارة الى أن المخاصمات الكلامية حول الالهيات بين الطوائف الاسلامية رغم كل إختلافاتها لاتمس المبادئ الاساسية اللازمة للاسلام والتى تتفق عليها هذه الطوائف كلها رغم وجود الاختلافات بينها ، وتبادل الاتهامات بالانحراف عن الدين .

وهناك نقطة أخرى تتطلب عناية الحكومة بصفة خاصة ، وهى أن تشجيع المغامرين فى الدين فى شبه القارة الهندية بحجة حرية الفكر الحديث سوف يؤدى الى أن الناس يصبحون غير مكترثين بالدين الى أبعد حد ممكن ، وتكون النتيجة الحتمية أن حقيقة أهمية الدين ترفع عن أذهانهم وعن حياة الطوائف الهندية ، ومن ثم تبحث العقلية الهندية بطبيعة الحال عن بديل آخر للدين ، والذى ربما لايكون أقل من الشكل المادى الالحادى المنتشر حاليا فى الاتحاد السوفيتى .

ولكن القضية الدينية ليست القضية الوحيدة التى تشغل حاليـ

عقلية مسلمي بنجاب ، بل هناك مخاصمات أخرى سياسية الطبع ، قد أشار اليها ، حسب اطلاعى ، سرهربت امرسون , فى خطاب ألقاه فى الحفلة السنوية لجمعية حماية المسلمين فى لاهور ، تلك لاشك ، سياسية الطبع المحضة ، ولكنها فى نفس الوقت تؤثر على وحدة مسلمي بنجاب بقدر ماتؤثر عليها القضية الدينية .

فى حين أنى أقدم بشكرى العميق الى الحكومة باهتمامها الكبير أن ترى مسلمي بنجاب متحدين ، فانى أخاطر أيضا بتقديم اقتراح الى الحكومة نفسها ، وهو أن تقوم الحكومة بامتحان ذاتها قليلا وأن تحاسب نفسها لساعة بصدد سؤالى أطرحه هنا فأقول : ,, من المسؤل عن التميز بين المسلمين الذين يعيشون فى الريف والذين يعيشون فى المدن ؟ وهو تمييز قسم الجماعة الى جماعتين وجزء الجماعة الريفية الى عدة جماعات فرعية تحارب بعضها بعضا بالاستمرار .

ويرثى ,, سرهربت امرسون » فقدان زعامة رشيدة بين مسلمي بنجاب ، ولكنى أود أن أجذب انتباه ,, سرهربرت امرسون » الى ادراك حقيقة ثابتة وهى أن التميز الريفى المدنى الذى اختلقته الحكومة والذى أبقت عليه عن طريق المغامرين السياسين الطماحين ، الذين تتركز عيونهم فقط على مصالحهم الشخصية ، لاعلى وحدة المسلمين فى بنجاب ، قد جعل فعلا جماعة بنجاب عاجزة عن خلق زعيم حقيقى رشيد .

ويبدولى أن هذه المكيدة وهى ، التميز الريفى المدنى ، ربما كان الغرض من ابتكارها أصلا أن يجعل نمو الزعامة الحقيقية فى بنجاب مستحيلا . فبينما يرثى ,, سرهربرت أمرسون » فقد ان

الزعامة فى المسلمين ، أنا أرثى فى نفس الوقت استمرار الحكومة البريطانية فى نظام يقضى على جميع الامال فى ظهور زعيم حقيقى فى هذا الاقليم .

**ملحق**

لقد علمت ان هذا البيان قد سبب نوعا من سؤ التفاهم فى بعض الحلقات . وأن هناك اعتقادا بأنى قدمت ببراعة الى الحكومة اقتراحا يحثها على قمع الحركة القاديانية بالقوة . ولكنى أوكد أنه لاشئ من هذا النوع . لأنى قد وضحت بدون خفاء أن سياسة عدم التدخل فى الدين ، هى السياسة الوحيدة التى يمكن أن يتنباها حكام الهند ، وأن أية سياسة أخرى غير هذه فهى مستحيلة ، مع أنى أعترف ، على كل حال ، أن سياسة عدم التدخل فى الدين، حسب اطلاعى ، تضر مصالح الطوائف الدينية ، ولكنا لامفر منها ، والذين يتأثرون بها ، لابدلهم من أن يحفظوا مصالحهم بطرق تناسب مصالحهم . وأفضل السبل لحكام الهند ، فى نظرى ، هو أن يعلنوا عن القاديانية بأنها طائفة منفصلة ، وهذا هو مايطابق سياسة القاديانيين أنفسهم ويتحملهم بعد ذلك المسلم الهندى كما يتحمل الجماعات الأخرى من بقيه الأديان .

## ـ ٢ ـ

## الاسلام والقاديانية

**تعريب : محمد الغزالى**

اثر ظهور ثلاث مقالات بقلم بانديت جواهر لال نهرو فى

صحيفة ,, مودرن ريويو ,, (Modern Review) بكلكته تلقيت رسائل عديدة من عدة شخصيات مسلمة تنتمى الى وجهات نظر دينية وسياسية مختلفة . فبعض كتاب هذه الرسائل يطلب منى أن أزيد فى توضيح وتبرير موقف مسلمى الهند تجاه الأحمديين ، والبعض الأخر يسئلنى ماهى المشكلة بالضبط فيما يتعلق بالأحمدية فى نظرى . ففى هذا البيان أود أولا أن ألبى هذه الطلبات التى أمنح لأصحابها كل الحق فى توجيهها الىّ ثم أرد على الاسئلة التى طرحها بانديت جواهر لال نهرو . ولكننى أخشى أنه قد لاتهم الباندیت أجزاء من هذا البيان ، فتوفيرا لوقته أقترح عليه أن يصرف النظر عن هذه الاجزاء .

ولا حاجة لى أن أصرح بأننى أرحب باهتمام الباندیت بأمرأراه من قمة مشاكل الشرق بل العالم كله . وهو ، فى اعتقادى ، أول زعيم وطنى فى الهند أبدى رغبته فى وعى الاضطراب الروحى السائد فى العالم الاسلامى . ونظرا الى جوانب متعددة لهذا الاضطراب والى ردود فعله الممكنة نرى من المستحسن أن يفتح أولو الألباب من الزعماء السياسيين الهنديين عقولهم وأذهانهم لادراك ماهية المشكلة التى تقلق قلوب المسلمين فى الوقت الحاضر .

ولكننى لا أريد أن أخفى من الباندیت أو من أى قارى آخر لهذا البيان أن مقالات الباندیت أصابت خاطرى بمجموعة من العواطف المتناقضة المؤلمة. وبعد أن عرفته كشخص يتسع تسامحه الحضارى لايسع ذهنى الا أن يميل الى الاعتقاد بأن رغبته فى فهم المسائل التى ذكرها رغبة جادة تماما ولكن الطريق الذى يعبربها عن نفسه تشير الى عقلية أجد من الصعب أن أنسبها اليه ،

وانني أميل الى الاعتقاد أن بيانى عن القاديانية الذى لم يكن الا ايضاحاً لنظرية دينية على خطوط عصرية ـ لم يعجب البانديت ولا القاديانيين لأن كليهما يكنان لأسباب مختلفة كراهتهما لتحقق هدف التضامن السياسى والدينى الاسلامى خاصة فى الهند . ومن البين أن هذا الزعيم القومى الهندى الذى قضت مثاليته السياسية على استبصار الحقائق غير متسامح لوجود رغبة فى تقرير المصير فى قلب جنوب غرب الهند المسلمة . فهو يظن ـ مخطئا فى رأيى ، أن السبيل الوحيد الى القومية الهندية يكمن فى مكافحة الوحدات الثقافية الحضارية مع أنه لايمكن للهند بناء حضارة راقية قابلة للاستمرار الا بالتفاعل بينها . والقومية التى يتم تحقيقها بهذه الوسائل لاتتأتى الا بالمنافرة وقد تجد الى الاضطهاد سبيلا . ومن البين أيضا أن اليقظة السياسية بين مسلمى الهند يبعث قلقا واضطرابا فى القاديانيين أيضا ، لأنهم يشعرون أن نهضة المسلمين السياسية فى الهند تحول حتما دون مخططاتهم لاختراع أمة على يدى متنبى هندى من خلال أمة النبى العربى صلى الله عليه وسلم فلم تكن دهشتى قليلة لما أحسست أن محاولتى فى التأكيد لمسلمى الهند على الضرورة الملحة الى التماسك الداخلى فى المرحلة الخطيرة من تاريخهم فى الهند وتحذيرى اياهم من القوى المفرقة بين صفوفهم التى تقدم نفسها كحركات الاصلاح قد أتاحت للبانديت فرصة التعاطف مع هذه القوى .

ولكننى لا أريد أن أستمر فى تحليل غير مرضى لدوافع البانديت ولافادة كل من يريد الاستطلاع المزيد عن موقف المسلمين من القاديانية انقل هنا فقرة من ,, قصة الفلسفة ،، لديورانت آملا أنها

تعطى للقارئ فكرة أوضح عن القضية المتعلقة بالقاديانية . ففى بضعة جمل لخص ديورانت وجهة نظر اليهود فى الحرم الكنسى للفيلسوف العظيم سبنوزا ولئلا يظن القارئ أننى بنقل هذه الفقرة ألمح إلى أى مقارنة بين سبنوزا ومؤسس الأحمدية ، فان الفرق بينهما فى السلوك والعقل والذكاء فرق كبير ـ ان سبنوزا الذى يقال عنه أنه كان مستغرقا فى الذات الالهية لم يدّع أبدا أنه مركز لجمعية محدثة وكل من لم يؤمن به خرج عن دائرة اليهودية . ففقرة ديورانت تنطبق انطباقا أشد على موقف المسلمين من القاديانية منه على موقف اليهود عن الحرم الكنسى المفروض على اسبنوزا والفقرة هى كمايلى :

,, وعلاوة على ماسبق ، فان الاتحاد الدينى كان الوسيلة الوحيدة فى نظر كبارهم لوقاية الشرذمة اليهودية القليلة فى امستردام من الانحلال بل كادت أن تكون هى الوسيلة الأخيرة للاحتفاظ بالوحدة وببقاء اليهود المنتشرين فى العالم ـ ولو كانت لهم دولة خاصة ، وقانون مدنى خاص ومؤسساتهم الخاصة للقوة والسلطة الدنيوية التى تفرض التماسك الداخلى واحترام الاجانب لربما كانوا على قدر أكبر من التسامح ولكن الدين بالنسبة اليهم كان هو الوطنية والعقيدة فى نفس الوقت ، فكان معبدهم مركز حياتهم السياسية والاجتماعية الى جانب كونه مركز العبادة واداء المراسم الدينية ـ والكتاب المقدس الذى طعن سبنوزا فى صحته كان وطن أسلافهم المحمول ففى هذه الظروف كانوا يعتقدون أن الكفر والخروج عن الدين هى الخيانة العظمى والتسامح هو بمثابة الانتحار » .

فمكانتهم فى امستردام كجالية أقلية كانت تبرر موقفهم

واعتبارهم سبنوزا عاملا مفرقا يهـدد جمعيتهم بالانحـلال . وهـكذا مسلموا الهنـد علـى حق فـى اعتبارهم الحـركة القاديـانية ، التـى تكفـر العالم الاسـلامى بأسره وتقاطعه مقاطعـة اجتماعية أشـد خطـرا علـى الحياة الاسـلامية الاجتماعية فـى الهنـد مـن خطـر فلسـفة سبنوزا علـى حياة اليهود الاجتماعية . وأعتقـد ، أن المسلم الهنـدى قـد أدرک بغزيرته طبيعـة الظروف التى تحيط به فـى الهنـد ولذلک هـو أكثر حساسية بالقوى المفرقة من مسلمى البـلاد الأخـرى . فهذا الادراک الغزيرى عنـد عامة المسلمين هـو ادراک مصيب تماما فـى رأيى علـى قـواعـد راسـخة فـى ضميـر مسلمـى الهنـد . والذيـن يتكلمـون عن التسامح فـى مثل هـذه القضية يتهاملـون فـى استخدام كلمة التسامح ، وأظنهم لايفهمونها قط . فقـد تصـدر روح التسامح من نزعات شتى فـى الذهن الانسانى كما يقول جبن (Gibbon) أن ,,هناک تسامح الفيلسوف الـذى يعتقد أن الأديان كلها صـادقة على السواء وهناک تسامح المـؤرخ الـذى يرى أن جميعها باطلة علـى السواء وهناک تسامح السياسى الـذى يعتقد أن الأديان كلها مفيدة على السـواء ، وهنـاک تسامـح الشـخص الـذى يتسامـح للطرائـق الأخـرى فـى الفكر والسلـوک لأنـه نمـا علـى عـدم الحفـل بأى طـريقة من طرق الفكـر والسلوک ، وهناک تسامح الضـعيف الـذى لايجـد لمجـرد ضعفه بدا من تحمل كل اهـانة توجـه ضد أى شئ يحترمه أو شخص يجله . ولا شک فـى أنه ليس لأى نوع من هـذه الأنواع من التسامح أى قيمـة أخـلاقية بل انها بالعكس تدل علـى الفقـر الروحـى لـدى من يمارسها . ان منشأ التسامح الحقيقى هـو السـعة الفكرية والبسطة الروحية ، وهـو تسامح شخص ذى قوة روحية

وهو مع غيرته علـى حدود عقيدته يتسامح بل ويقدر جميع وجوه العقيدة غير عقيدته . ولا يقدر على هـذا النـوع من التسامح أحـد غير مسلم حقيقى . فان عقيدته تأليفية ولذلک يمكنه أن يجـد أسسا للتعاطف والتقدير فـى العقائد الأخـرى . ومـا أجمل ما أبرزه شـاعرنا الهنـدى العظيم أمـير خسـرو جوهـر هـذا النوع من التسامح فـى قصـة عابـد من عبدة الأصنام ، فبعد ذكره العلاقة الشـديدة بينه وبين أصنامـه يخاطب الشاعـر قـرّاءه المسلمين ويقول :

اے کـه زبت طـعنـه بـه هنـدو بـری

هـم زوئے آمـوز پـرستش گـری

(يا من يطعـن الهنـدوكى فى صنمـه عليـک أن تتعلـم منـه الاخلاص فى العبادة)

فالمحب الحقيقى لله سبحانه وتعالى هو الذى يستطيع أن يقدّر قيمة التعبـد ، ولو كان مرجعه الـى آلهة لايومن بهم فحماقة هؤلاء الـدعاة الـى التسامح هـى أنهم يعتبرون موقف الانسان الغيور علـى حدود عقيدته نوعا من عدم التسامح ، وهم يخطئون فـى ظـنهـم أن هـذا الموقف يمثل نقصا اخلاقيا وهم لايفهمون أن أهمية هـذا الموقف هـى بيولوجية أساسا ـ فكلما شعـر أصحاب أى جماعة إمـا بغزيرتهم أو علـى أساس استدلال عقلى بأن الحياة المتحـدة للنظام الاجتماعى الـذى ينتمون اليه فـى خـطر ، فان موقفهم المدافع لابد أن يقيم من خـلال النظـر الـى معيار بيولوجى ولا بد أن يحكم علـى كل فكر أو عمل فـى هـذا الصـدد من ناحيـة القيمة الحيوية التى قـد يملكها هـذا الفكر أو ذاک العمل ، فالسؤال فـى هـذه القضية لايكون : هـل موقف شخص أو جماعة من الاشخاص الذين يعتبرون خارجين عن

الدين حسن أو قبيح أخلاقيا ؟ بل السؤال هو كمايلى : هل هذا الموقف باعث الحيوة أم قاض عليها ؟ ويبدو كأن البانديت جواهر لال نهرو يظن أن مجتمعا قائما على المبادى الدينية يستلزم وجود مؤسسة الاستجواب (Inquisition) القاسى ، هذا ، ولاشك ، صحيح فيما يتعلق بتاريخ المسيحية ولكن تاريخ الاسلام ، على عكس منطق البانديت ، شاهد على أن مؤسسة الاستجواب لم توجد قط فى البلاد الاسلامية خلال ثلاثة عشر قرنا من تاريخ المسلمين . والقرآن الكريم يحرم وجود أى شئ من قبيل هذه المؤسسة تحريما قطعيا ، فيقول : يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، ان بعض الظن اثم، ولا تجسسوا ، ولايغتب بعضكم بعضا .

وسيجد البانديت فى تاريخ الاسلام أنه كلما فر المسيحيون واليهود من الاضطهاد الدينى فى بلادهم لم يجدوا ملجأ الا فى بلاد الاسلام وان الكلمتين اللتين تبتنى عليهما البنية الفكرية فى الاسلام هما بسيطتان بحيث يكاد يكون من المستحيل اعتبار مبتدع خارجا عن دائرة الاسلام ، ولكن لاشك أنه اذا هدد شخص النظام الاجتماعى القائم يعتبر حاملا لأفكار مبتدعة و سوف تتخذ الدولة المسلمة المستقلة قرارها بصدده طبعا ولكن يكون قرار الدولة فى هذه الحالة مبنيا على الاعتبارات السياسية أكثر منه على الاعتبارات الدينية البحتة . واننى لمدرك تماما أن شخصا مثل البانديت ، الذى ولد وتربى فى مجتمع ليس له حدود معينة وبالتالى يوجد فيه تماسك داخلى ، يصعب عليه أن يتصور وجود مجتمع دينى ورقيه بدون أى هيئات مؤسسة معينة من الحكومة للتحقيق فى عقائد الناس . وهذا واضح من الفقرة التى ينقلها البانديت من

كاردينال نيومان ويشك فـي مـدى اتفاقـي مع تطبيق قول الكاردينال على الاسـلام . فليعلم الباندیت أن هناک فرقـا عظيمـا بيـن البنية الـداخلية للاسـلام والكاثوليكية التى شجعت دائما امكانيات تفاسير مبتدعـة جديدة بسبب تعقـدها وغلبـة العناصـر فوق المعقـول فـى طبيعتها ووجود أفكار دوغماتية (Dogmatic) متعـددة فيها كما يشهـد عليه تاريخ الديانة المسيحية . ان الدين الذى جاء به سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم ) لبسيط و مبنى على كلمتين ـ أنه لا اله الا الله تعالى الواحـد الأحـد وأن محمدا رسول الله هو الأخير فى سلسلة من أصفياء الناس الـذين ظهروا من حين الى آخـر فى كل زمان و مكان ليهدوا البشرية الـى الصـراط المستقيم فى الحياة . واذا كان لابد من تعريف العقيدة ، كما يظن بعض الكتاب المسيحين، بأنها قضية فوق المعقول يجب التسليم بها لغـرض الاحتفاظ بالتضامن الدينى بدون أى فهم لمحتواه الميتافيزيقى فهاتان هما الكلمتان البسيطتـان فى الاسـلام ، فلايمكن اطلاق العقيدة عليهما لأن كلتيهما تستنـدان الـى تجـربة البشرية وقابلتان للاثبات بمعيار الاستدلال العقلـى فلاتنشـأ مسألة الابتـداع فـى الدين (Heresy) ، التى تتطلب الحكم بما اذا كان مرتكبه ، داخل فى دائـرة الديـن أم هـو خارج عنها ، وذلک فـى مجتمع قائم على هاتين الكلمتين البسيطتين ، الا اذا أنكر المرتكب احديهما أو كلتيهمـا ، ومثـل هـذا الابتـداع كان نادرا فـى تاريـخ الاسـلام ، الـذى مع غيرته علـى حدوده ، يسمح بحرية التفسير داخل هذه الحدود . ولما كانت ظاهرة هذا النوع من الابتداع أى الفـكر الـذى يؤثر علـى حـدود الاسـلام ، أمرا نادرا فـى تاريخ الاسـلام فلذا يشتـد احساس عامة المسلمين حينما يحدث تمـرد من هـذا النوع .

ولذا كان احساس ايران المسلمة شديدا ضد البهائيين ولذا يحس مسلموا الهند احساسا شديدا ضد القاديانيين .

ولا ننكر أن الفرق الدينية المسلمة كثيرا ما اتهم بعضها بعضا بالكفر لاختلاف بسيط بين أصحابها فى أمور فقهية وكلامية ، وفى هذا الاستعمال الشائع للفظة الكفر بدون أى تمييز سواء أكان استعمالها لاختلاف صغير فى مسائل كلامية أم لقضايا الفكر الخطيرة التى تحتم اخراج مرتكبيه من دائرة الدين ذاتها ، يرى بعض المثقفين فى العصر الحاضر الذين لم يطلعوا قط على تاريخ الخلافات الكلامية بين المسلمين ، علامة من علامات الانحلال السياسى والاجتماعى للأمة الاسلامية ، ولكن هذا تفكير خاطئ تماما فان تاريخ الكلام عند المسلمين يثبت أن تبادل الاتهامات بالكفر على نقاط بسيطة للاختلاف بدل كونه عاملا مفرقا كان سببا لبحث المسلمين على انشاء وتطوير فكر كلامى تأليفى . يقول البروفيسور ,, هرغرونج ,, : عندما نقرأ تاريخ تطور القانون المحمدى ، نجد أن فقهاء كل عصر يرمى بعضهم بعضا بالكفر بأخف إثارة ، ثم نرى على جانب آخر هؤلاء الناس أنفسهم يحاولون التوفيق بين خلافات مماثلة لأسلافهم ويتحدون فى تحقيق هذه الغاية أيما اتحاد ,, . ان دارس علم الكلام الاسلامى يعرف أن هذا النوع من الكفر يعرف فى الاصطلاح الفنى عند فقهاء المسلمين ,, بكفر دون كفر ,, أى منزلة الكفر التى لايخرج مرتكبها عن دائرة الاسلام . ولكننا نعترف أن هذا النوع من الكفر الصغير قد يكون مصدر الفساد فى أيدى الملائية ( المشيخة ) الذين يأخذون جميع الاختلافات الكلامية على اطلاقها ولايكادون يبصرون الوحدة فى

الاختلاف لكسلهم الفكرى . ولايمكن معالجة هذا الفساد الا بكشف بصيرة دارسى المذاهب الكلامية بالروح التأليفية فى الاسلام وبتلقينهم وظيفة المناقضة المنطقية كمبدأ حركى فى ( الديلقتيقا ) أى الجدليات الكلامية .

ان قضية الكفر الكبير تنشأ عندما تمس تعاليم مفكر أو مصلح حدود العقيدة الاسلامية . ويؤسفنى أن أقول أن هذه القضية تنشأ بالفعل بتعاليم القاديانية . والجدير بالذكر هنا أن الحركة الأحمدية منقسمة الى مخيمين تعرفان بالقاديانية واللاهورية تعتبر أولاهما مؤسس الحركة نبيّاً كاملا ، ولكن الثانية اكتفت ، اما بالاقتناع أو بالسياسة ، بلهجة أخف فى دعوتها الى التعاليم القاديانية . . ولكن قضية كون مؤسس الأحمدية نبيا يكفر منكره بما أسمى بالكفر الكبير فهى محل الخلاف بين طائفتين ولا أرى من الضرورة بمكان هنا أن أقيّم وجوه هذا الخلاف الداخلى بين الأحمديين ، ولكننى أعتقد لأسباب أبينها هنا ، أن جوهر الأحمدية يتمثل فى فكرة نبى يخرج منكره عن دائرة الاسلام وأن الرئيس الحالى للجماعة القاديانية أقرب الى روح الحركة من امام الطائفة اللاهورية .

أننى قد بينت القيمة الحضارية لفكرة ختم النبوة بمناسبة أخرى ومعناه واضح .

لايمكن الخضوع الروحى لأى بشر بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى حرر أتباعه بشريعة جاءبها اليهم والتى تتحقق فى واقع الحياة لأنها نابعة من صميم الضمير الانسانى ، واذا أردنا بيان هذه العقيدة فى صيغة كلامية فنقول : ان الجمعية الاجتماعية السياسية التى هى الاسلام كاملة وخالدة فلا يتصور امكان وحى

يستلزم انكاره الكفر بعد سيدنا محمد ( صلى الله عليه وسلم ) وكل من ادعى هذا الوحى فهو خائن للاسلام . وبما أن القاديانيين يؤمنون بأن مؤسس الحركة الأحمدية حامل هذا الوحى فانهم بذلك يعتبرون العالم الاسلامي بأسره كافرا . وان استدلال مؤسس الحركة نفسه هو أن روحانية الرسول عليه الصلوة والسلام تبقى ناقصة اذا لم تكن مولدة لنبى آخر ثم يعتبر هو نبوته دليلا على هذه الملكة المولدة للنبوة فى روحانية الرسول عليه الصلوة والسلام وليس هذا الاستدلال إلا نموذجا لمناظرات القرون الوسطى الكلامية . ولكن اذا قلنا له : هل روحانية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قادرة على ايجاد أكثر من نبى واحد فجوابه يكون بالنفى . وهذا يعنى أنه يقول : ,, ان محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، ليس بخاتم الأنبياء ولكننى أنا خاتمهم وفضلا من أن يفهم هو الأهمية الحضارية لنظرية ختم النبوة الاسلامية فى تاريخ البشرية عامة وتاريخ آسيا خاصة هو يظن أن تفسير ختم النبوة بمعنى أنه لايسع أحدا من أتباع سيدنا محمد ( صلى الله عليه وسلم ) أن يبلغ مرتبة النبوة ، دليل على نقص فى نبوة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) وعندما انظر فى نفسية ذهنه أرى أنه يستخدم لصالح دعواه بالنبوة ، مايسميه ,, با الروحانية المبدعة ،، (Creative Spirituaty) للرسول عليه الصلاة والسلام ولكنه فى نفس الوقت يحرم الرسول عليه الصلاة والسلام من خاتميته لما يحدد صلاحية روحانيته الا بداعية انشاء نبى واحد وهو مؤسس الحركة الأحمدية . وبهذه الطريقة يسترق هذا النبى الجديد خاتمية من يعتبره سلفه الروحى .

هو يدعى بأنه ,, بروز ،، رسول الله صلى عليه وسلم ويلمح بذلك الى أن خاتميته هى فى الواقع خاتمية محمد ( صلى الله عليه وسلم )

لأنه ,, بروز » له وأن هـذا التفسير لايخالف ختم نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفـى ابراز هذين النوعين مـن ,, ختم النبوة » لنفسـه والرسول الله صلى الله عليه وسلم هـو يغض النظـر بلباقته عن الناحيـة الدنيويـة لفكرة ختم النبوة . ولكن من الواضح أن كلمـة ,, بروز » ولو استعمل بمعنى المماثلة التامـة لاتساعده قط لأنه لابد ,, للبروز » أن يكون وجها آخر للأصل . والبروز ، لايؤدى معنى الأصل نفسه الا اذا استعمل بمعنى التناسخ فان أخـذنا كلـمـة ,, البـروز » بمعنى ,, مماثل في الخصائص الروحيـة » لايبقى لهـذا الدليـل أى وزن وأمـا ان استعملناها بمعنى ,, تناسـخ الأصل » بمدلوله الآرى فيكون الدليل مقبولا ولكن مختـرعـه لايبقى الا أن يكون مجـوسيا فـى خفـاء .

وهكذا ادعى القاديانيون اعتمادا علـى محى الدين بن العـربى الصوفى المسلم العظيم من أسبانيا أنه قـد يمكن لولى مسلم فى تطوره الروحى أن يبلغ نوع التجربـة التى تختص بالشعور النبوى . مع أننى لا أرى رأى الشيخ محى الدين بن العربى سديدا مـن الناحية النفسية ، ولكن لوفرضنا أن رأيـه صحيح ، فان الاستدلال القاديانى مبنى على فهم خاطئ لموقفه الصحيح . فالشيخ يعتبر هـذا الأمـر نيلا شخصيا بحتـا لايمنح بل لايمكن أن يمنح بطبيعـة الحال ، لصاحبه أى حق فـى تكفير كل من أنكره ، بل يمكن من وجهة نظر الشيخ ، أن ينال هـذا الشعور النبوى ، أكثر مـن ولى فى زمان واحـد وفى مكان واحـد . فالنقطـة المهمـة التى يجب ضبطهاهنا هى : مع أنه يمكن نفسيا لولى أن ينال تجـربـة نبوية ولكن تجـربته هـذه لاتملك أيـة أهميـة سياسية أو اجتماعية بحيث تضع صاحبها موضع المركز فـى جمعية جديدة وتمنح له الحق فى إعتبار هـذه الجمعية معياراً لايمـان أمـة

محمد صلى الله عليه وسلم وكفرها .

وبصرف النظر عن نظريته النفسية الصوفية ، فاننى مقتنع بعد النظر الدقيق فى الأجزاء المتعلقة بهذا الموضوع الواردة فى ,,فتوحات،، أن الصوفى الأسبانى العظيم لايقل ايمانا من غيره بختم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كأى مسلم متمسك بعقيدته ، ولو استطاع من خلال كشفه الروحى أن يرى أنه سيحاول أحد من محترفى الصوفية ، القضاء على ختم نبوة الرسول عليه الصلوة والسلام تحت غطاء نفسيته الصوفية لكان قد سبق علماء الهند فى تحذير مسلمى العالم من هؤلاء الخونة ضد الاسلام .

نرجع الآن الى حقيقة الأحمدية ـ ان مناقشة مصادرها والطرق التى أثرت بها الأفكار المجوسية قبل الاسلام بواسطة التصوف الاسلامى على مؤسس الأحمدية جديرة بالاهتمام من وجهة نظر مقارنة الأديان ولكن لايسعنى فى هذا المقام أن أقوم بهذه المناقشة ويكفينا أن نقول أن ماهية الأحمدية مختفية فى غشاوة التصوف واللاهوت القروسطى ـ وقد واجه علماء الهند هذه الحركة كحركة ثيولوجية بحتة ، واستعانوا فى مجابهتها بالأسلحة الثيولوجية . ولكننى أعتقد أن هذه الطريقة لم تكن مناسبة لمعالجة هذه الحركة . ولذا لم يكن نجاح علمائنا فى مجابهتها الا جزئيا . وان التحليل النفسى الدقيق لوحى المؤسس ليكون الطريق الأنسب لكشف الحياة الداخلية لشخصية الرجل وأرى أن فى مجموعة وحى المؤسس التى ألفها المولوى منظور الهى نجد المواد الغنية والمتنوعة لبحثنا النفسى ، وان هذا الكتاب فى رأيى مدخل الى سلوك مؤسس القاديانية وشخصيته ، وأنا أرجو أنه سوف يقوم أحد من

الشباب الباحثين فـى علم النفس الحديث بدراسـة موضوعية جـادة مـن خلال هـذا الكتاب ، فان قام بدراسته بمعيار قرآنى كما يجب أن يكون لأسباب لايمكن ذكرها هنا ، ويوسع دراسـتـه الـى البحـث المقارن بيـن تجـارب مؤسس الحـركة الأحمـدية وبيـن الصوفييـن المعـاصـرين من غير المسلمين أمثال رامـا كرشنا من بنغـال ، فانه لابد أن يدهش بطبيعـة التجربة التـى صـدرت على أسـاسها دعـوى النبوة فـى حق منشى الأحمـدية .

وهنـاك طـريقة مؤثـرة ممـاثلة وأكثـر افـادة مـن وجهـة نظـر الشخص العـادى وهـى الوقوف علـى المحتوى الحقيقى للاحمـدية فـى ضؤ تاريخ التفكير الـدينى فـى الهنـد ، وعلى الأقل ، منـذ سنـة ١٧٩٩م فان سنة ١٧٩٩م مهمة جـدا فـى تاريخ العالم الاسـلامى . ففـى هـذه السنـة سقط السلطان فتح علـى تيبـو ( فى جنوب الهنـد ) وجاء سقـوطه خيبـة لآمال المسلمين فى الجاه السياسى فى الهنـد وفى نفس السنة وقعت معـركة نوارنيـو (Navarneo) التى انتهت بدمار الأسطول التركى . والكلمات المكتوبة على ضريح تيبـو فـى التاريخ الجملى كانت الهامية ، ومـازال كل زائـر لسـرنجابتـم ( عاصـمـة السلطان تيبـو ) يراها منقوشـة فـى الحجـر : ,, ذهب مجـد الهنـد والروم „ فقـد بلـغ انحـطاط الاسـلام السياسى فـى آسيا نهايته فـى سنـة ١٧٩٩ م . ولكن كما نشـأت الأمـة الألمانية الحـديثة من اهانة ألمانيا فى يوم ,, جيـنا„ نستطيـع أن نقـول بكل حـق أن الاسـلام المعاصـر على مشاكله قـد نهض من الاهانة السياسية فـىسنة ١٧٩٩ م

وسـوف أوضح هـذه النقطـة فيمـا بعـد ، وأما الآن فأريد أن أثير انتباه القارى الـى بعض المسائل التى نشأت فـى الهنـد المسلمة

منـذ سقوط تيبـو و تطـور الاستعمار الأوروبى فى آسيا ـ

هل فكرة الخلافة فـى الاسـلام تعنى مؤسسة دينية ؟ ماهى مكانة المسلميـن فـى الهنـدأو بالأحـرى مكانة المسلميـن جميعـا خارج السلطنة العثمانية وما وجه صلتهم بالخلافة العثمانية ؟ هل الهنـد دار الحـرب أم دار الاسـلام ؟ ومـا المقصود الحقيقى من نظرية الجهاد فى الاسلام ؟ وما معنى كلمة ,,منكم„ فى قوله تعالى : واطيعوا الله واطيعوا الرسول و أولى الامر منكم ؟ وما درجـة الأحاديث الواردة فـى شأن قدوم المهـدى ؟ ان هـذه الأسئلة وبعض الأسئلة الأخـرى الناشئـة منها كانت أسئلة تهم مسلمى الهنـد فقط . ولكن الاستعمار الأوروبى، الـذى كان آنذاك يتغلغل فـى العالم الاسـلامى كان أيضا مهتما بها اهتماما شديدا . والخـلافات التى أحـدثتها هـذه الأسئلة تشكل فصلا مهما فـى تاريخ الاسـلام فى الهنـد . وهـى قصـة طويلة ومازالت تنتظـر كاتبا قويا و قلمـا مؤثـر ا يعالـج هذه القضايـا بالتفصيـل . والسياسيون المسلمون الـذين ارتكـزت أنظارهم على واقـع الوضـع القائم تمكنوا من اقناع جماعة من العلماء بخط معيـن فى التفكيـر الدينى الـذى كان ، رأيهم ، يناسب الوضع القائم ، ولكن لم يكن من السهل التغلب بمجـرد المنطق علـى العقائد التـى سادت عقليـات الجماهير الاسـلامية منذ قرون . وفى مثل هـذه الحالة يسير المنطق اما عـلى أساس المصلحـة السياسـية أو علـى خطـوط تفسيـر محـدث للنصوص والروايات . وفى كلتا الحالتين لايعجـب الاستـدلال عامة الناس ولا يعجب عامة المسلمين المتمسكين بالدين أيما تمسك الا شئ واحـد وهو الاحتجـاج بمصـدر الهى . فـرؤا من اللازم أن يبحثوا عن أساس من الـوحى متلاءم مع الغايـات السياسـية الـكامنة وراء

الأفكار الثيولوجية التى تحملها الأسئلة المذكورة آنفا ،وذلك ابتغاء للمكافحة التامة للعقائد السائدة . وقد وفرت الأحمدية هذا الأساس من الوحى ، ويدعى الأحمديون أنفسهم بأنها أكبر خدمة قاموا بأدائها تجاه الاستعمار البريطانى . ان الادعاء النبوى بأساس من الوحى لاثبات معتقدات دينية ذات مدلولات سياسية يعنى أن منكرى هذه المعتقدات كفرة من الدرجة الأولى ، بأن وجبت عليهم النار . وكما فهمت أنا خطورة هذه الحركة فان اعتقاد الأحمديين بأن سيدنا عيسى عليه السلام مات ميتة انسان عادى وأن مجيئه الثانى لايعنى الا مجئيى شخص مثيل له روحياً ، يعطى لهذه الحركة نوعا من الظاهر المعقول ولكن هذا الاعتقاد ليس بجزء لازم لهذه الحركة وان هى فى رأيي ، الا خطوات ابتدائية نحو فكرة النبوة الكاملة التى هى وحدها تخدم اغراض هذه الحركة التى أنشأتها القوى السياسية الجديدة . ففى البلاد المتخلفة (Primitive) انما هى السلطة التى تجذب الناس وليس المنطق . ونظرا الى قسط وافر من الجهالة والسذاجة اللتين تجتمعان أحيانا مع الذكاء عند شعبنا اذا وجد شخص بلغ من الوقاحة درجة أنه يدعى تلقى وحى الهى يستلزم عدم الايمان به عقوبة سرمدية ، فمن السهل فى بلد محكوم اختراع نظرية سياسية واقامة جماعة تكون عقيدتها السياسية هى العبودية فمن السهل فى بنجاب اصطناع شبكة واهنة مكونة من الصيغ الكلامية الغامضة والتغلب على عقول الفلاحين الساذجين الذين طالما تعرضوا لأنواع شتى من الاستغلال .

ان البانديت جواهر لال نهرو ينصح الأرثذوكسيين من جميع

الديانات أن يتحدوا ويؤجلوا بذلك ظهورما يتصوره القومية الهندية . هذه النصيحة الساخرة تفرض أن الأحمدية حركة اصلاحية . وانه لايعلم أن الاحمدية حركة اصلاحية وانه لايعلم أن الاحمدية تشكل مسائل دينية وسياسية بالغة الاهمية فيما يخص المسلمين فى الهند. وكماشرحت آنفا ، ان وظيفة الأحمدية فى تاريخ الفكر الاسلامى هى اقامة أساس من الوحى يبرر الاستعباد السياسى الحالى للهند بصرف النظر عن المسائل الدينية البحتة . ولو أخذنا الناحية السياسية وحدها فى عين الاعتبار فلا يليق بشخص مثل الBانديت جواهر لال نهرو أن يتهم مسلمى الهند بالمحافظة الرجعية ـ ولا أشك فى أنه لو تيسر له الوقوف على طبيعة الاحمدية الحقيقية لاستحسن موقف مسلمى الهند تجاه حركة دينية تدعى السلطة الالهية فى حق أعداء الهند .

وهكذا يرى القارئ أن هذه اللطخة التى نجدها على وجه المسلمين الهنود اليوم ليس مظهرا مفاجئا فى تاريخ الفكر الدينى الاسلامى فى الهند ، وانما كانت الأفكار التى تمثلت نهائيا فى صورة هذه الحركة قد ظهرت فى المناقشات الكلامية قبل ولادة مؤسس الأحمدية بوقت طويل . اننى لا أقصد هنا أن ألمح الى أن مؤسس الأحمدية وأصحابه قد دبروا برنامجهم تدبيرا ، بل اننى أذهب أبعد من هذا ، وأقول أن مؤسس الحركة الأحمدية قد سمع صوتا بالفعل ، ولكن هل جاء هذا الصوت من منشئ الخلق والقوة أم انه انبعث من الفقر الروحى الموجود عند الشعب ؟ فالجواب يتوقف على طبيعة الحركة التى أنشأها هذا الصوت وعلى نوعية الافكار والعواطف التى منحتها الحركة الى الذين لبوا دعوتها ـ ولا

يظن القارى أننى أستعمل لغـة استعارية . فان تاريخ حياة الأمم يخبرنا بأنه كلما ينحط مـد حياة شعب من الشعوب الى الجزر ، يحث هذا الانحطاط نفسـه أفـراد هـذا الشعـب ، فيحـث شعـراءه وفلاسفتـه وعلماءه وزعماءه السياسيين ويجعـل منهم طبقـة مـن ,, الـرواد » الـذين لا وظيفـة لهم غير تمجيـد كل شائن وقبيح فـى حياة شعبهم مستخدميـن فـى ذلك قوة فن مغـر أو منطـق مغـوى . أن هـؤلاء الـرواد يلبسون اليأس ملبس أمـل لامع ، ويضعفـون قيـم السلـوك العـريقة . وبذلك يقضون علـى القـوة الروحانية لمن يصبحون عـرضة لهم ، فتصوروا الحالة المنحطة لارادة شعب يحمل على التسليم ببيئته السياسية علـى أسـاس الحجـة الالهيـة علـى أنها مصيره النهائى . فالذين لعبوا أدوارهم فـى هـذه المسـرحية الأحمـدية هـم فـى ظنـى أدوات برئية فـى أيدى الانحطاط . وقـد سبق لعب مسـرحية مماثلـة فـى ايران ، ولكنها لم تؤد ولم يكن بقدرتها أن تؤدى الـى المشاكل الدينية والسياسية التى أوجـدتها الأحمـدية لـلاسـلام والمسلمين فـى الهنـد . فـروسيا أنعمت علـى البابية بالتسـامح وسمحت للبابيين أن يفتحـوا أول مـركز لدعوتهم فـى عشـق آباد . وكذلك أظهرت انكلترا نفس التسامح تجاه الأحمـدية بالاذن لهم بفتح أول مـركز لدعوتهم فـى ووكنـغ ، أفكان اظهار هـذا التسامح من قبل كل من روسيـا وانكلترا لمصالحها الاستعمارية ؟ أم كان مبينا علـى السعة الفكرية خالصـة ؟ هذا أمـر يصعب علينا الجـزم به ، ولكن الواضح البين فـى هـذا الصـدد هـو أن هـذا التسامح قـد خلق مشاكل صعبة للاسـلام فـى آسيا ، بيـد أنه نظـرا الـى بنيـة الاسـلام كما أفهمها ، ليس عنـدى أدنى شك فـى أن الاسـلام سيخرج بخلوصـه وصفاءه مـن

هـذه المشاكل التى تخلق له هـكـذا . فالـدهـر يتقلب وقـد أخـذت الأمـور تتجـه اتجاها جديـدا فـى الهنـد . وان الـروح الجـديـدة للديمـوقراطية التـى تأتـى الهنـد سوف تحطـم أوهـام الأحمـديين وتقنعهم بخلو اختراعاتهم الـدينية مـن أى جـدوى .

ولن يقبل الاسـلام أيضا ، احيـاء تصوف القرون الوسطى الـذى قـد نهب جميع المواهب الطيبة لـدى أتباعـه ولم يعوضهم منه الا تفكيرا قاتما مظلما ، وانه قـد جـذب أحسن العقليات الاسـلامية عبـر القـرون الأخيرة تاركا شئون الدولة الـى أصحاب العقول العـادية ، فليس بمستطاع العالم الاسـلامـى المعـاصـر أن يكرر التجـربة ولا بمقـدرتـه أن يسمـح باعـادة التجـربة البنجـابية فـى شغـل أذهـان المسلمين وافكارهم طوال مـدة تصل القـرن بالقضايا الثيولوجية التى لاعلاقة لها بواقع الحياة . والعالم ، والحمـد لله ، قـد بلـغ مرحلة التفكيـر والتجـربـة الجـديدة المتنورة ولم يعـد بامكان ولـى أو متنبئ أن يرجع به الـى جناب تصوف القـرون الوسطى مـرة أخـرى .

وانتقل الآن الـى الأسئلة التـى طرحها الـبانديـت جواهـر لال نهـرو . اننى أشعـر بأن مقالات البانديت لاتظـهر أى اطلاع علـى الاسـلام وعلى تاريخـه الـدينى خلال القـرن التاسع عـشـر . ولا أخاله قـرأ ماقـد كتبته مـن قبل فـى موضوع هـذه الأسئلة ذاتها . ولا أستطيع أن أنقل هنا كل ماكتبته مـن قبل كما لايمكننى أن أحـرر فـى هـذا المقام التاريخ الـدينى الاسـلامى فـى القرن التاسع عـشر الـذى لايمكن معـرفة الوضع الحالى فـى العالم الاسـلامى معـرفة صحيحة بدون معرفته وقـد كتبت مئات مـن مقالات وكتب حول تركيا ووضع الاسـلام الحـديث ، واننـى قـرأت أكثر هـذه الكتابات وقـد قـرأهـا

غالبا الباندیت أیضا . ولكننى أؤكد له أنه لم يقف واحد من هؤلاء الكتاب على طبيعة هذه النتيجة أو على الأسباب التى أدت الى هذه النتيجة فلذا أرى من اللازم الاشارة الى التيارات الرئيسية الجارية فى الفكر الاسلامى خلال القرن التاسع عشر .

وكما ذكرت آنفا ان الانحطاط السياسى للاسلام قد بلغ ذروته فى سنة ١٧٩٩ م ولكن لايمكن أن تكون هناك شهادة أكبر على قوة الاسلام الداخلية من أنه لم يلبث الاسلام أن استعاد مكانته فى العالم . فقد ولد خلال القرن التاسع عشر السير سيد أحمد خان بالهند ، وسيد جمال الدين الأفغانى بأفغانستان والمفتى عالم جان فى روسيا ، وهذه الشخصيات تأثرت على الأرجح ، بمحمد بن عبدالوهاب الذى ولد بنجد فى ١٧٠٠ م والذى كان مؤسسا لما سميت بالحركة الوهابية التى يصح اعتبارها أول نبض فى حياة المسلمين الحديثة . وقد اقتصر تأثير السير سيد أحمد خان بالجملة على الهند ولكنه يحتمل أن يكون أول مسلم معاصر تبصر الناحية الايجابية فى العصر الذى كان يقبل . والعلاج الذى وصفه سيد أحمد خان لأمراض المسلمين كما وصفه المفتى عالم جان فى روسيا . هو التعليم الحديث . ولكن العظمة الحقيقية لهذه الشخصية تكمن فى أنه كان أول مسلم هندى أدرك ضرورة توجيه اسلامى جديد متشبع بروح العصر وكافح من أجل تحقيقه ، مع أننا قد نختلف معه فى آراءه الدينية ولكن لايسعنا أن ننكر أن لنفسه الحساسة فضل التقدم فى التفاعل مع العصر الحديث .

ان المحافظة الشديدة عند المسلمين الهنديين أضعفت صلتهم بواقع الحياة ، ففشلوا فى أن يبصروا المفهوم الصحيح لمواقف

السيد أحمد خان الدينية ، وفي منطقة شمال غرب الهند التي هي أكثر تخلفا وتأثرا بالتصوف عقبت حركة السيد أحمد خان رد فعل الأحمدية ، وهي مزيجة غريبة من التصوف السامي والآرى والتي تعتقد أن الاصلاح الروحي ليس عبارة عن تزكية الحياة الباطنية للفرد طبقا لمبادئ التصوف الاسلامي القديم بل هو عبارة عن محاولة اشباع تطلعات العامة بمنحهم مسيحا موعودا ، ووظيفة هذا المسيح الموعود ، ليس تخليص الناس من حاضر هم المشوش بل هي حملهم على أن يستسلموا بضمائرهم أمام مايملى عليهم هذا الواقع . وان هذا الرد للفعل يحمل في طيه تناقضا دقيقا . فانه يحتفظ بالاطار الاسلامي من جهة ويقضى من جهة أخرى على العزيمة التي جاء هذا الاطار لتثبيتها .

وقد كان مولانا السيد جمال الدين الأفغاني مطبعا بطابع آخر ، وما أعجب عمل التقدير الالهي - فأكثر المسلمين في هذا العصر تقدما من حيث الفكر الديني ومن حيث العمل ولد في افغانستان - وكان ماهرا متقنا لجميع لغات المسلمين في العالم تقريبا كما منحه الله تعالى منتهى القوة في التعبير والبيان ، وكان يتنقل بنفسه المضطربة من احدى البلاد الاسلامية الى أخراها نافذا في أبرز شخصيات ايران ومصر وتركيا . كما أن بعضا من أكبر علماء عصرنا مثل الشيخ محمد عبده و آخرين من الجيل الناشئ الذين صاروا زعماء سياسيين فيما بعد مثل سعد زغلول باشا كانوا من تلامذته . ولم يكتب الا قليلا واهتم بالخطابة أكثر ، وحول بذلك كل من اتصل به الى جمال الدين الصغير . ولم يزعم جمال الدين الأفغاني في يوم من الأيام أنه مصلح أوهادى ولكن مع ذلك فانه لم يكن في عهدنا أحد

مثله فـى احياء روح الاسـلام بين أهله . ان روح السيد جمال الدين الأفغانى مازالت تعمل عملها فـى العالم الاسـلامى ولا يعلم أحـد نهايتها .

وقـد يتسائل البعض : مـاذا كان هدف هـؤلاء المسلمين العظام بالتحديد؟ فالجواب هـو أنهم أبصـروا أنه يحكم العالم الاسـلامـى ثلاث قـوى رئيسية فركزوا كل طاقاتهم علـى خلق ثورة ضـد هذه القوى :

١) المـلائيـة أو المشيخية ( التطرف الدينى ) ان العلماء كانوا دائما مصـدر القوة للاسـلام ولكنهم ، مع مرور الزمن وخاصـة بعض هـدم بغـداد ، أصبحوا محافظين الـى درجـة التطـرف ولـم يعـودوا يسمحون بأى حرية للاجتهاد أى تكوين آراء مستقلة فـى المسائل الفقهية القانونية . ان الحركة الوهابية التى استلهم منها المصلحون الاسـلاميون من القرن التاسع عشـر روحهم كانت فـى الحقيقة ثورة علـى هـذا التشـدد والصـلابة عنـد العلماء . فكانت الغاية الأولى أمام المصلحين الاسـلاميين فـى القرن التاسع عشـر تجديد الفكر الدينى والحـرية لتفسيـر الأحـكام الفقهية فـى ضـؤ التجـربة الانسـانية المتقدمـة .

٢) التصـوف (Mysticism) ان الشعوب الاسـلامية تعـرضت لغلبة نـوع من التصوف الـذى أغمض عن الواقع وشـوش أذهان النـاس وغمسهم فـى جميع أنواع التوهـم ، وانحـط التصـوف من مكانتـه السامية حيث كان قوة للتربية الروحية الـى وسيلة محضـة لاستغلال جهل الناس وضعف اعتقادهـم ومضى هـذا التصوف بتدرج وخفاء فـى توهين ارادة أهل الاسـلام ولينها الـى درجـة أنهم همـوا باللجؤ من

تكليف الشـريعة الاسـلامية والتخلص من انضباطها الشـديد . وثار مصلحو القرن التاسـع عشـر علـى هـذا التصـوف ودعوا المسلميـن الـى ضوءنهار العالم الحديث . لم تكن دعوتهم هـذه الـى المادية ولكن رسالتهم كانت تهدف الـى فتح عيون المسلمين ليبصـروا روح الاسـلام التى تعنى بتسخير المادة لا بالفرار منها .

٣) الملوك المسلمون الـذين تركز اهتمامهم بمصالحهم الملكية وحـدها وكانوا دوما علـى استعـداد لبيع بلادهم الـى من يزايد فـى ثمنها مادامـت مصـالحهم الخـاصـة مضمـونة ، فاعـداد الشعــوب الاسـلامية للثورة على هـذه الأوضاع المتدهورة فـى العالم الاسـلامى كان يشكل رسالة السيد جمال الدين الأفغانى بصورة خاصـة .

لايمكن لـى بهذه المناسبة أن أفصل بيان التغيير الذى أنجـزه هؤلاء المصلحون فـى أفكار المسلمين وعـواطفهم ولكن من الواضح أنهم مهدوا الميـدان الـى حـد كبيـر لظهور مجموعـة أخـرى من الشخصيات أمثال زغلـول باشـا ومصطفـى كمـال ورضـا شاه . ان المصلحين الأسلاف منحوا تفسيرات واستدلالات وتوضيحات ، ولكن جماعة الرجال التى خلفت من بعدهم مع كونها دون أسـلافها فـى العلم والمعـرفة ، ملكت الهمـة والعزيمة للانـدفاع الـى اتخاذ موقف متنور بضوء شمس النهار وللقيام بانجاز ما اقتضته أوضـاع الحيـاة المتجـددة معتمـدة على ملكاتها السليمـة وادراكها القوى . لاشك أن هؤلاء ارتكبوا الأخطاء فى أعمالهم ، ولكن تاريخ الأمم شـاهد على أن أخطاءهم تؤتى ثمارها فـى بعض الأحيان . فحياة هؤلاء الناس ، دون المنطق ، هـى التى تكافح بدون أن ترتاح لحل مشاكلها بذاتها . وقـد يقال هنا أن سيد أحمـد خان والسيد جمال الدين الأفغانى ومئـات

تلامذة الأخير فـي البلاد الاسـلامية لم يتثقفوا بالثقافـة الغـربية وكانوا ممن تتلمـذوا لشيوخ المدرسـة القديمـة وتنفسوا تلك البيئـة الفكرية والروحية التى أرادوا اعادة بناءها فيما بعـد . مع أنه يمكن الاعتراف بضغوط الأفكار الحديثة عليهم ، ولكن التاريخ الـذى اشرنـا اليـه باختصار آنفا يدل بوضوح على أن الانتفاضـة التى قامت فـى تركيا والتى يتوقع قيامها عاجلا أو آجلا فـى سائـر البـلاد الاسـلامية لم تدفعها الا القوى الداخلية الى حـد كبير . وان المراقب السطحـى للعالم الحديث وحـده هـو الـذى يعتقـد أن الأزمـة المعاصـرة فـى العالم الاسـلامى تدين الـى عمل القوى الخارجية تماما .

فهل العالم الاسـلامى خارج الهنـد وتركيا علـى الأخص قـد غـادر الاسـلام ؟ ان البانديت جواهـر لال نهـرو يزعم أن تركيا لم تعـد قائمـة علـى اسلامها ولا نخاله يدرك أن مسألة خروج شخص أو جماعة من دائرة الاسـلام من وجهـة نظـر المسلميـن هـى مسـألة فقهية بحتة ولا يمكن البت فيها الا بالنظـر الـى مبـادئ الاسـلام الأساسية وما دام المرء قائما على أصلين أساسيين من أصول الاسـلام أعنى توحـيد الاله وختم رسالة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لايسع أكثـر المشائخ تشدداً أن يخرجـه عن دائـرة الاسـلام ، ولـو اعتبرت تفاسيره للشـريعة أو لنصوص القرآن خاطئة . ولكن ربما كان فـى ذهن البانديت جواهـر لال نهـرو بعض الابداعات المفروضـة أو الحقيقية التى أدخلها أتاترک فلنقف عليها لحظة ونحللها . هل هـو تطور النظـرة المادية العامة فـى تركيا الـذى يبدو معاديا للاسـلام ؟ لقـد أصاب الاسـلام نصيبا واخرا من التنسک فـى مامضى ، وقـد آن الأوان للمسلمين أن يبصـروا الواقع . ان المـادية سلاح ردئ ضـد

الدين ولكنه مفيد ضد حرفة الملائية وحرفة المتصوفة التى تتعمد أن تعمى الناس بغية استغلال جهالتهم وسذاجتهم . ان روح الاسلام لاتخشى اتصالها بالمادة ، فقد قال الله تعالى فى القرآن : ,, لا تنس نصيبک من الدنيا » ولكن يصعب على غير المسلم أن يفهم أنه بالنظر الى تاريخ العالم الاسلامى خلال بضعة القرون الأخيرة يتبين أن تطور النظرة المادية ليس الاشكلا من أشكال تحقيق الذات . فهل هو الغاء اللباس القديم أو ادخال الخط اللاتينى الذى جعل الباندیت يزعم أن أجل الاسلام قد انقضى فى تركيا ؟ ان الاسلام من حيث كونه دينا ليس له بلد كما ليس له لغة معينة أو لباس معين من حيث كونه مجتمعا وحتى تلاوة القرآن بالتركية أيضا أمر قد سبق له نظير . اننى شخصيا أعتبره رأيا خاطئا لأن كل طالب علم باللغة والآداب العربية اليوم يعرف جيدا أنه اذا كان للغة من اللغات غير الأوربية مستقبل فهو للغة العربية ولكن المعلومات الأخيرة تفيد بأن الأتراک قد تركوا تلاوة القرآن بلغتهم . أم هو الغاء تعدد الأزواج أو منح الاجازة الرسمية للعلماء هو أحدث هذا التفكير عند الباندیت ؟ والشريعة الاسلامية تقر بسلطة أمير الدولة الاسلامية فى حظر مباحات الشريعة اذا اقتنع بكونها مؤدية الى الفساد الاجتماعى . وأما مايتعلق بالعلماء المجازين فاننى لوددت ادخاله فى الهند المسلمة لو كان بيدى السلطة . ان بلاهات عوام المسلمين تدين الى الملائين الذين يعكفون على تلفيق الخرافات وبنفيهم من حياة الناس الدينية . قد قام مصطفى كمال أتاترک بعمل أراح أرواح الشاه ولى الله وابن تيمية وأمثالهما . روى فى المشكوة حديث معناه أنه لايحق لأحد أن يقوم

بالدعوة الـى الاسـلام الا اذا كان أميرا للدولة الاسـلامية أو شخصا مفوضا منه لهذا العـرض ولا أدرى اذا كان أتاترك سمع هـذا الحديث أم لا ولكن الـذى يدعو الـى الاعجاب هـو أن نور ضميره الاسـلامى قـد أضاء سبيل عمله فـى هـذه القضية المهمـة (١) . ولاشـك أن اختيار القانون السويسرى بأحكامه فـى المواريث غلطة خطيرة نشئت من تحمس الشباب للاصلاح ويجوز الاغماض عنه فـى شعب ثائـر مندفع الـى التقدم . ان سرور التحرر من أغلال كهانة قديمة يقـود الناس أحيانا الـى مسالك غير مختبرة ، ولكن تركيا وسائر بلاد العالم الاسـلامى سوف تدرك النواحى الاقتصادية غير المكشوفة لاحـكام المواريث الاسـلامية التى يصفها فان كريمر بأنها تشكل ,, الفـرع الأكثر أصالـة فـى القانون الاسـلامى » فهل هـو الغاء الخلافة أم التفريق بين الدين والدولة هـو الذى بعث الباندیت على تفكيره ؟ ان الاسـلام فـى أصله ليس حكما امبراطوريا ، وفـى الغاء الخلافة التى أصبحت منذ أيام الأمويين نوع من الامبراطـورية قـد عملـت روح الاسـلام عملها من خلال مصطفى كمـال . وعلينـا الاهتـداء بابـن خلـدون ، ذلک المؤرخ الفيلسوف العظيـم ومـؤسس علـم التاريـخ الحديث لنفهم وجه اجتهاد الأتراک فـى قضية الخلافة ولا أرى شيئا لهذا الغـرض أنفـع من أن أنقـل هنـا فقـرة من كتابـى التجـديـد (Re — construction) ( صفحات ٥٨ ـ ١٥٧ )

,, يذكر ابن خلدون فـى مقدمته المشهورة ثلاثة آراء مستقلة حول فكـرة الخلافة العامـة فـى الاسـلام :

١ ـ أن الامامة العامة مؤسسة الٰهية لابد من وجودها

٢ ـ أنها من قبيل الوسائل المحضـة

٣ ـ أنه لاحاجة الى هذه المؤسسة قط .

وقد اعتنق الرأى الأخير جماعة الخوارج ( وهم أول الدعاة الى النظام الجمهورى من المسلمين ) . ويبدو أن تركيا الحديثة تحولت من الرأى الأول الى الثانى أى الى مارأى المعتزلة من أن الامامة العامة هى وسيلة محضة . ويستدل الأتراك أنه لابد لهم من الاهتداء بتجاربهم السياسية الماضية التى تدل دلالة واضحة على فشل فكرة الامامة العامة فى المجال العملى . فكانت هذه الفكرة فكرة عملية مادامت الامبراطورية الاسلامية سليمة من الاضطراب . وقد نشأ منذ انحلال هذه الامبراطورية وحدات سياسية مستقلة فلم تعد الفكرة قابلة للتطبيق ولايمكن لها أن تعمل عملها كحامل حيوى فى تنظيم حديث يجمع شمل أهل الاسلام . »

وكذلك ليس بين الاسلام وبين فكرة التفريق بين الدولة والدين من غرابة . ان نظرية الغيبوبة الكبرى للامام قد حققت هذا التفريق منذ أمد طويل فى ايران الشيعية ، وعلينا أن لانخلط الفكرة الاسلامية لتصنيف وظائف الدولة السياسية والدينية بالفكرة الأوروبية للفصل بين الدين والدولة فان الأولى ليست الا عبارة عن توزيع الوظائف كما يتضح من النشأة التدرجية فى الدولة الاسلامية لمناصب شيخ الاسلام والوزراء . وأما الأخيرة فهى قائمة على الازدواجية الميتافزيقية للروح والمادة . وقد كان بدؤ المسيحية نظاما رهبانيا لايمت بشئون الدنيا بصلة وأما الاسلام فكان منذ البداية مجتمعا مدنيا يملك تشريعات مدنية الا أنها كانت مستمدة من الوحى كما نؤمن به . والازدواجية الميتافيزيقية التى تبتنى عليها الفكرة الأوروبية قد أذاقت الأمم الأوروبية الأمرين . وقد ألف منذ

بضع سنوات كتاب فـى امريكا بعنـوان : ,, لو جـاء المسيـح الـى شيكاغـو » ومما قاله أحـد المؤلفين الأمريكيين معلقا على الكتاب :

,, ان الـدرس الـذى نتعلمه مـن كتاب المستـر ستيـد هـو أن الآفات العظيمة التى تعانيها البشـرية فـى يومنـا هـذا هـى آفـات لايمكن معالجتها الا بالعـاطفـة الـدينية ، وأن أمـر معـالجـة هـذه الآفات قـد سلم الـى الدولة الـى حـد كبير ، وأن الـدولة ذاتها قـد سلمت الـى أجهـزة فاسـدة ، وأن هـذه الاجهـزة ليست فارغـة عن الارادة فحسب بل هـى فارغـة أيضا عن الصـلاحية لمعـالجة هـذه الآفات ، وأنه لا يحمى الملايين الـذين لايحصى عـددهم من البؤس ولايقى الـدولة ذاتهـا مـن الانحطاط الا ايقاظ الشعور الـدينى لـدى المواطنين بواجبهم الاجتماعى » .

وفـى تاريخ التجربة السياسية للمسلمين لم يكن التفريق الا عبارة عن التفريق فـى الوظائف والمهام ، ولم يكن هـذا تفريقا فـى الافكار.

فلايمـكن القـول بأن التفريـق بيـن الـديـن والـدولة فـى البـلاد الاسـلامية يعنى تحـرر النشاط التشريعى للمسلمين من ضمير الشعب الـذى تربى وتطور بروحانية الاسـلام . فالتجربة وحـدها سوف تظهـر مـدى فاعلية هـذه الفكرة فـى تركيا الحـديثة واننا لنرجو أنها لاتؤدى الـى المفاسـد التى أدت اليها فـى أوروبـا وأمـريكا .

اننـى بحثت بايجـاز الابداعات المذكورة لأجل القارئ المسلم أكثـر من الباندِيت جـواهـر لال نهـرو . والابداعات التى خصصها الباندِيت بالذكر هـى اعتنـاق الأتـراك والفـرس الأهـداف القـومية والعرقية ، وكأنه يزعم أن اختيار هذه الأهداف يعنى ترك الاتـراك والفـرس للـدين الاسـلامـى ، وكل دارس للتاريـخ يعلـم جيـدا أن

الاسلام ظهر فى عصر بدأ فيه فشل المبادئ القديمة لتوحيد الناس، مثل علاقات الدم والحضارات المبنية على الولاء للعروش فالاسلام أوجد مبدأ التوحيد الانسانى فى فكر الانسان وعقيدته ، لافى دمه وعظمه . ورسالته الاجتماعية الموجهة الى البشرية هى ,, اما أن تحرروا من العرق أو موتوا فى الحروب المهلكة » وليس من المبالغة فى القول أن الاسلام يزدرى خطة الطبيعة فى بناء العروق ويعمل من خلال مؤسساته الخاصة على انشاء وجهة النظر المضادة للقوى الطبيعية البانية للعروق . وفى سبيل ايلاف البشر عمل الاسلام فى مدة ألف سنة عملا أهم بكثير مما عملته المسيحية والبوذية فى ألفى سنة أو أكثر . والأمر لايقل عن معجزة عندما يستأنس مسلم هندى فى المغرب على الرغم من فروق العرق واللسان . ومع ذلك لايمكن أن يقال أن الاسلام يعاند العرق تماما فتاريخه شاهد على أن خطته فى مكافحة العرقية التدريجية هى تنطلق على أساس أقل معارضة ، فالقرآن يقول : ,, انا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم » . وبالنظر الى ضخامة مشكلة العرق والى طول المدة التى لابد أن تستغرقها مكافحة العرقية من البشرية فان معاملة الاسلام مع هذه المشكلة ، وهى محاولة التغلب عليها بقدر الامكان بدون أن يصير هو عاملا فى بناء العروق ، هى المعاملة المعقولة الوحيدة القابلة للتطبيق وهناك فى كتيب السير آرثر كيث بعنوان ,, مشكلة العرق » فقرة رائعة جديرة بالنقل هنا :

,, والآن بدأ الانسان يشعر بأن غاية الطبيعة الأولى - وهى بناء النسل - لاتتلاءم مع ضرورات العالم الاقتصادى الحديث وقد بدأ

يتساءل : ما الـذى يجب أن أفعـل ؟ هـل أجعـل مـن أمـر بناء النسل الـذى عملته الطبيعـة الـى الآن ، نهاية وأملك السكينـة الدائمـة ؟ أم أسمح للطبيعـة أن تتابع سيرها القديم وأجـد الحـرب كنتيجـة حتمية ؟ وعلى الانسان أن يختار أحـد الطريقين لاثالث لهمـــا » .

فمـن الواضح أن أتاترک اذا كان مندفعا بالوحـدة التورانية فهو بذلک لايخالف روح الاسـلام ولكنـه أكثـر من ذلک يخـالف روح عصـره واذا كان عنده الايمان بحقيقة العـروق فلا بد أن ينهزم أمام روح هـذا العصـر التى توافق روح الاسـلام تمامـا فـى هذا الصـدد . اننـى شخصيا لا أعتقـد أن الوحـدة التورانية هـى التى دفعت أتاترک ولكن التزامه بالوحـدة التورانية هـو رد فعله على الوحـدة السـلافية أو الوحـدة الالمانية أو الوحـدة الاينجلو سكسـونية .

اذا كان مفهوم الفقرة المذكورة أصبح واضحا لـدى القارئ فانه يتبين له مؤقف الاسـلام من الأهـداف القومية . والقومية بمعنى حب الوطن وحتى بمعنـى الاستعـداد لتضحية الحياة فـى سبيل كرامته جزء من عقيدة المسلم ولكنها تتعارض مع الاسـلام عنـــدما تتعـدى الـى أن تلعب دور نظرية سياسية وتدعى كونهـا مبدأ للتضامـن البشـرى وتطالب بتخليف الاسـلام الـى الوراء كرأى شخصى لايسمح له بأن يكون عاملا فعالا فـى الحياة الوطنية . ولن تصير القومية مشكلة فـى تركيا و ايران ومصـر والبلاد الاسـلامية الأخـرى فالمسلمون فـى هـذه البـلاد يشكلـون أغلبيـة ساحقـة ، وأقليـــات هـذه البـلاد اليهودية والمسيحية والزرتشتية تعتبر من أهل الكتاب أو شبه أهل الكتاب طبقا للشـريعة الاسـلامية التى تسمح للمسلمين اقامة علاقات اجتمـاعية حرة معهم بمـا فيها علاقـات المـزاوجة . والقـومية تصيـر مشـكلة

للمسلمين فـى البـلاد التى هم فيها أقلية ، والنظرية القومية فيها تطالبهم بمحو كيانهم تماما . وفـى بلاد الأكثريات المسلمة يتسامح الاسـلام مع القومية لأن الاسـلام فـى هـذه البلاد هـو القومية نفسه ، وأما فى بلاد الأقليات فهناك كل المبررات لطلب المسلميـن حق تقرير المصير كوحـدة حضارية وفـى كلتـا الحالتيـن ينسجـم موقف الاسـلام مع مبادئه . .

ان الفقـرة المكـتوبة أعـلاه يبين وضع العالم الاسـلامى اليوم بالتحديد . واذا كان مفهومها واضحا لـدى القارئ فيتضح له أن أسس التضامن الاسـلامى لاتختل بالقوى الخارجية أو الـداخلية بأى صورة . ان التضامن الاسـلامى كما شرحت آنفا يشـتمل علـى توحيد الاعتقاد بمبـدأين أسـاسييـن للاسـلام تتلوهمـا الأركان الخمسـة المعـروفـة للـدين . وهـى من أول عناصـر التضامن الاسـلامى الـذى ظل قائما منـذ عهد سيدنا رسـول الله صلى الله عليه وسلم الـى أن أخـل به البهائيون فـى فارس والقاديانيون فـى الهنـد فـى الحقبة الأخيرة مـن الزمن . وهـو الضمـان لوجود بيئـة روحيـة موحـدة عملية فـى العالم الاسـلامى وهـو يمهـد تجانس الدول الاسـلامية الـذى قـد يظهـر اما فـى صورة دولة عالمية ( وهـى الغاية النهائية ) أو فـى صورة جامعـة للـدول الاسـلامية أو فـى صورة عـديـد من الـدول المسـتقلة التـى تتـم الاتفاقـات والاحـلاف بينها علـى أسـاس اعتبارات اقتصادية وسياسية خالصـة . وهكذا يتصل الهيكل الفكرى لهذا الـذين اليسيـر بسيـر العصـر . ولايمـكن ادراک عمـق هـذا الاتصال الا فـى ضؤ بعض الآيات القرآنية ، وشـرحها يتطلب منـا الالتفات عن موضوع نحن بصـدد بحثـه الآن . والتضامن الاسـلامى

لايقع فـى خلل سياسى عنـدما تحارب الـدول الاسـلامية بعضها بعضا وهـو كذلك لايقع فـى خلل دينى اذا خـرج المسلمون علـى بعض معتقـداتهم أو أركان دينهم . فاذا كان الاسـلام لايتسامح مع وجود فئة خارجة عليه فـى داخل طيـه فانما هـو من أجل غيرته عـلى هـذا التضامن الـدائم . وأما خارج حظيرته فهذه الفئـة تستحق نفس القـدر مـن التسامح الـذى يستحقـه أتبـاع أى ديـن آخـر . ويبدولـى أن الاسـلام فـى الوقت الحاضـر يمـر بعهـد التحول وانه يتحول مـن صورة التضامن السياسى الـى صورة أخـرى له سوف تقـررها القوى التاريخية . والأحـداث تمـر فـى العالم الحديث بسـرعـة تجعل أى تنبؤ من المستحيل تقريبا . والتاريخ وحـده سوف يعطينا الاجابة علـى تساؤلنا حول موقف التنظيم السياسى الاسـلامى ، واذا تحقق وجوده من غيـر المسلمين . وكل مايمكننى أن أقول هـو أنه بموقـعه وسط الطرق بين آسيـا و أوروبا ولكونـه مركبـا من النظـرتيـن الشـرقية والغـربية الـى الحياة ، لابد لـلاسـلام أن يقوم بدور الوسيط بيـن الشـرق والغـرب . ولكن ماذا سيكون اذا أدت حماقات أوروبا الـى موقف اسـلامى معاند ؟ وتطور الأحداث فـى أوروبا بين أيام ولياليها يقتضى تغييرا جزريا فـى موقف أوروبا مـن الاسـلام ولا يسعنا الا أن نرجو أن الاستغلال الاقتصادى والطموح الامبريالى لايقتم رؤيتهم . وأما ما يتعلق بالهنـد فاننى أقـول بكل ثقة أن مسلمـى الهنـد لن يستسلموا أمام أهـداف سياسية تبغـى القضاء علـى كيانهم الحضارى ونحن نعتمـد على معـرفتهم لكيفية التوفيـق بيـن مقتضيـات دينهم ووطنيتهم .

ولى كلمـة عن صاحب السمو الآغا خان ويصعب علي أن أكتشف

الـدافع الـذى بعث البانديت جواهـر لال نهرو علـى مهاجمته . فربما يعتقـد أن القاديانيين والاسماعيليين يحسبون فـى طائفة واحـدة وهـو لايدرى قطعـا أنه مع وجود الخطأ فـى تفسيرات الاسماعيليين الدينية ، أنهم يؤمنون بمبادئ الاسـلام الأسـاسية . لاشك فـى أنهم يؤمنون بالامامة المستمرة ولكن الامام فـى عقيدتهم لايتلقى الوحى وان هـو الا شـارحا للشـريعة وقـد خاطب صاحب السمو الآغـا خان أتباعـه أخيـرا ( كما جاء فـى ,, ستار ,, بتاريخ ١٢ مارس ١٩٣٤م ) قائـلا :

,, اشـهدوا أن الله واحـد وأن محمد ا رسول الله وأن القـرآن كتاب الله وأن الكعبة قبلة الجميع وأنتـم مسلمون فعايشـو المسلمين وحيوهم بتحية السـلام عليكم . وسمـو أولادكم أسماء اسـلامية وصلوا مع المسلمين جمـاعـة فـى المسـاجـد وصومـوا منتظميـن واعقـدوا المناكحات طبقا لأحكام النكاح الاسـلامية وعاملوا المسلمين جميعا معاملـة الاخوة ,, .

والآن أتـرك للبانديـت أن يقـرر اذا كان الآغـا خان يمثـل التضامن الاسـلامى أم لايمثـل .

١ ـ مما تجدر به الاشارة أن هذه المقالة كتبت قبل خمسين عاما تقريباً . (التحرير) ـ